فلسفة كارل بوبر (المقالة العشرون)

أد/ناصر هاشم محمد

فلسفة العلم هى حلقة الاتصال بين الفلسفة والعلم ، وهى أحدث الفروع الفلسفية بوجه عام ، ومن المعروف أن التمييز بين الفلسفة والعلم ، لم يتبلور فى شكله النهائي إلا منذ قرنين أو ثلاثة قرون على الأكثر . وقد تميزت هذه الفلسفة بسمات عديدة تجلت هذه السمات وبرزت بصورة واضحة في القرن العشرين الذى يمكن وصفه بأنه قرن الاكتشافات العلمية المذهلة ، وقرن المعرفة الموضوعية ، ولعل أبرز سمات هذه الفلسفة ، أنها فلسفة عقلانية نقدية فى المقام الأول ، أى اهتم فلاسفتها بمشكلة المعرفة أكثر من اهتمامهم بمشكلة الوجود ، فتناولوا بالنقد كل العلوم القائمة، وناقشوا أسسها ومبادئها ، وأعادوا النظر فيها من جديد من خلال المعايير التى حاول كل مذهب فلسفى معاصر من خلالها أن يميز بين العلم و اللاعلم من خلال التحليل والضبط المنطقى فى ضوء الحاجات الجديدة للعلم ، كما حاولوا توظيف نتائج العلم ونظرياته وحقائقه فى بناء مذاهبهم الفلسفية الجديدة .

ويعد الفيلسوف النمساوي كارل بوبر (1902-1994) نموذجا صادقا وأصيلاً لسيادة هذه الروح النقدية للفلسفة فى القرن العشرين ،حيث أن النقد هو لب فلسفته ومبحثها الأساسى الذى اعتمد عليه فى تناوله لقضية المنهج والمعرفة العلمية واللاعلمية وكذلك موقفه من الميتا فيزيقا، حتى جاءت آراءه مجسدة للعلاقة الوثيقة بين الفلسفة والعلم وإسهام كل منهما فى بناء العالم وتحديد مكانة الإنسان فيه ، كما جاءت محاولة أصيلة لفهم منطق العقل أومنطق العلم الذى أنتج العلوم المختلفة.

وتعتبر قضية المنهج من القضايا المهمة التي احتلت مركز الصدارة فى البحوث المعرفية والابستمولوجية عند فلاسفة القرن العشرين ، فقد كانت النظرة الفلسفية للمنهج تتغير تبعا للمفهوم السائد عن العلم ، وهو ما أدى إلى تغير نتائج البحث العلمى على مرالعصور وأدى إلى تغير النظرة الفلسفية لمسائل تمتد الى أبعد من مجال العلم الضيق و جعل البعض يعتبر البحث فى المنهج بحثا عن الحقيقة ، لأنه يعنى البحث فى الوسائل المختلفة التى يتخذها الإنسان ليصل إلى الحقيقة ، وهو أيضا بحث فى نظرية المعرفة وتحديد مصادرها المختلفة[1] وسوف نعرض في هذهالدراسة لموقف الفيلسوف النمساوي "كارل بوبر-1994" من

قضية المنهج العلمي وسنغوص فى أعماق فلسفته لنتعرف على الملامح العامة والخاصة لهذه الفلسفة ونناقش موقفه من القضايا العلمية المعاصرة ، خاصة فيما يتعلق منها بالعلوم الطبيعية ، وموقفه الفريد من أكبر المشكلات المنهجية وأخطرها على الإطلاق وهى مشكلة الاستقراء ، والتي جاء موقفه مزها معبراً عن التطورات التي دخلت على الفلسفة فى القرن العشرين وهى التطورات التى بلورت نظريته المعرفية و شكلت ملامح منهجه العلمى "منهج المحاولة والخطأ" كما سنرى فى ثنايا هذا البحث و يمكن تحديد الأبعاد الأساسية لفلسفة بوبر والتى بنى من خلالها موقفه العدائي من الاستقراء على النحو التالي .

1- الملامح العامة والخاصة لفلسفة بوبر

أولاً : جاءت فلسفة بوبر فى المنهج العلمى فلسفة دارونية تطورية اتخذت من الفيزياء محورا أساسيا ومثلا أعلى للمعرفة العلمية.

ثانيا :- كانت العقلانية النقدية هى أبرز سماتها لأنها جعلت النقد لب الفلسفة وجوهرها وماهيتها وطريقها الوحيد فى التخلص من النظريات الخاطئة والأيديولوجيات البالية واستبعادها ليحل محلها نظريات أكثر صدقا وأكثر نجاحا فى إطار عملية أطلق عليها بوبر اسم "المحاولة والخطأ" أو "منهج البحث النقدى أى أن النقد هو حجر الزاوية فى أفكار بوبر . فلم تعد الفلسفة عنده مجرد تحليل لغوى أو منطقى ، للألفاظ أو الأفكار كما كانت عند أنصار الوضعية المنطقية ، بل هى أداة للمناقشة الحرة للنظريات العلمية بقصد اكتشاف نقاط الضعف والقوة فيها وتنقيتها ومعالجتها معالجة منهجية استنباطية دقيقة .

ثالثا : جاء الاتجاه العلمي عند بوبر اتجاها ثورياً يرفض التراكمية ويحاول التخلص من رواسب المرحلة النيوتينية القائمة على الحتمية التى سيطر فيها المنهج الاستقرائى على العقول سيطرة شبه تامة من خلال مبدأيه المعروفين السببية والاطراد ، فحاول بوبر في منهجه الجديد "المحاولة والخطأ" اقتلاع المنهج الاستقرائي من جذوره ،وهو ما جعل بعض الباحثين يعتبرون بوبر فيلسوف العلم الأول فى القرن العشرين دون منازع على هذه الأولوية، حتى قال عنه السير هيرمان بوندى " إن العلم ببساطة ليس شيئا أكثر من منهجه ، وليس منهجه شيئا أكثر مما قاله بوبر

رابعا : أبرز ما اختلفت به فلسفة بوبر عن سائر الفلسفات العلمية هو اهتمام بوبر بالميتافيزيقا ورفضه اعتبارها عائقا فى سبيل التقدم العلمى أو اعتبارها مجرد قضايا فارغة من المعنى والمضمون ، ورفضه استبعادها نهائياً من دائرة البحث العلمى ، بل ذهب بوبر إلى عكس ذلك تماماً حيث رأى أن الميتافيزيقا ضرورية لتقدم العالم ذاته لما تقوم به من إمداد العلماء بالفروض الخصبة وتوسيعها لخيال العلم وإلهامه ، وأكد بوبر على أن الكشف العلمى لا يمكن تصوره خاليا من بعض الأفكار التأملية الخالصة ، وبرهن على ذلك "بأن كل منجزات الحضارة الغربية المعاصرة تدين فى نشأتها إلى العقلانية الكلاسيكية التى كانت الملهم الأعظم للتقدم الحضاريوالاجتماعي ، رغم كونها نموذجاً للفكرة الخاطئة التي تلهم بأفكار رائعة"

رابعاً : من السمات البارزة أيضا فى فلسفة بوبر أنه من الصعب تحديد سماتها العامة أو الخاصة دون التوقف أمام موقفه من المدرسة الوضعية المنطقية وذلك لأن فلسفة بوبر فى معظمها تمثل الاتجاه المعاكس للاتجاه الوضعي ، فقد تبلورت فلسفة بوبر من خلال مناقشته للقضايا التى دافع عنها الوضعيون خاصة قضية التمييز بين العلم واللاعلم، والتى يظهر فيها الخلاف الشديد بين بوبر والوضعيين إلى الدرجة التى جعلت الكثير من الباحثين يصورون بوبر على أنه العدو اللدود للوضعيين المنطقيين وينكرون وجود أى نقاط اتفاق بينه وبينهم،ولهذا يبدو هذا القول مجانبا للصواب لسببين رئيسيين الأول : أن بوبر كانت تربطه ببعض الفلاسفة الوضعيين صلة وثيقة أمثال كارناب الذى كان بوبر من المعجبين ببعض آرائه الفلسفية والثانى: أن بوبر لا يخالف الوضعيين المنطقيين على طول الخط بل هناك نقاط التقاء بين الطرفين لعل أهمها أن بوبر مثله مثل سائر الفلاسفة الوضعيين فيلسوف تجريبى يرى أن مصير أى نظرية علمية أى قبولها أو رفضها إنما يتحدد وفقا للملاحظات والتجارب ونتائج الاختبارات. ، أما عن نقاط الاختلاف بين بوبر والوضعيين المنطقيين فهى عديدة ويصعب الإلمام بها فى هذا البحث ولهذا سنركز على أهمها وعلى ما له صلة بموضوع هذا البحث وهو المنهج العلمى عند بوبر ، والتى يمكن إدراجها على النحو التالى :

أ- هاجم بوبر معيار التحقق التجريبى "التثبت" الذى قال به الوضعيون المنطقيون والذي فحواه "أن معنى أية عبارة يتألف من قابليتها لمنهج التحقق ، والعبارة التى يمكن إخضاعها للتحقق التجريبى هى العبارة التى تعتبر محتوية على معنى حقيقي فيقول آير أحد رواد المدرسة الوضعية "إن عبارة ما هى فى الواقع ذات دلالة بالنسبة إلى شخص ما ، حينما يكون فى وسع هذا الشخص أن يتحقق من صحة تلك القضية ، أعنى

حينما يكون على علم بالملاحظات التى تتكفل بإرشاده إلى طريقة تقبل تلك القضية بوصفها صادقة أو رفضها بوصفها كاذبة

وقد أدى هذا القول من الوضعيين إلى استبعاد العبارات الميتافيزيقية باعتبارها عبارات مستحيلة التحقق .

ب – رفض بوبر مبدأ التحقق بمعناه التجريبى سواء بالنسبة للعبارات الميتافيزيقية أو حتى عبارات العلم الطبيعى لأن التحقق أساسه الاستقراء ، وكذلك كان يرى أن القضايا التجريبية كلها ذات طابع فرضى سواء كانت قضايا مفردة أو قضايا كلية ، تشترك فى ذلك القضايا المعبرة عن الماضى وتلك المعبرة عن الحاضر (*)، والقضايا المشيرة إلى المستقبل، فهى كلها ذات طابع فردى".

ويقصد بوبر بقوله عن القضايا التجريبية أنها ذات طابع فرضى أن صدقها ليس نهائياً أو مطلقا لأنه من الممكن ظهور ملاحظة أخرى تشكك فيها وتفندها، وقد تراجع الوضعيون فى موقفهم واقتربوا من رأى بوبر،

فها هو كارناب يصرح قائلاً "إذا كنا نعنى بالتحقق إثبات الحقيقة النهائية القاطعة فلن تتحقق أى قضية مركبة بهذا المعنى".

- نظرية المعرفة عند بوبر

وإذا استعرضنا نظرية المعرفة عند بوبر سنجد أن المنطلق الأساسي لنظريته فئ المعرفة هو إصراره على أن المعرفة فى كل صورها وعلى رأسها العلم موضوعية ، لذا فهو ينكر المعرفة القائمة على الاعتقادات الذاتية ، ويطالب باستبعادها لافتقادها إلى المنطقية والمنهجية ، أي أن بوبر يميز بين مغزيين لمعنى كلمة المعرفة

الأول: المعرفة بالمغزى الذاتي : وهى تتمثل فى اعتقادات الذات ونزوعاتها، ومشاعرها، وما تراه، أو تقره، أو تنكره، وهذا النوع من المعرفة من اختصاص علم النفس وليس المنطق.

الثانى: المعرفة بالمغزى الموضوعي : وهى تتمثل فى كل مخزونات الكتب وأجهزة الكمبيوتر –أى كل الأفكار المطروحة سواء كانت فلسفية أو علمية مادامت مصوغة لغوياً ، إنها موضوع الأبستمولوجيا التنتجتفى محتواها المعرفى وعلاقاتها المنطقية وأسسها المنهجيةوهذه المعرفة هى التى جعلها بوبر فى(العالم ويقول عنها "المعرفة أو الفكر بالمعنى الموضوعي الذى هو مجموعة مشكلات و نظريات وحجج نتبناها

بوصفها كذلك ، وفى هذا المعنى الموضوعي تكون المعرفة مستقلة عن تأكيد أى شخص يدعى المعرفة ، وهى مستقلة أيضاً عن اعتقاد أى شخص كان أو عن استعداده للقبول أو للتأكيد أو للتصرف"

ولهذا عاب بوبر على الأبستمولوجيا التقليدية منذ (أرسطو) وحتى (راسل) لأنها جعلت بحوث المعرفة تؤول إلى علاقة تربط عقولنا الذاتية بموضوع المعرفة، فكان بوبر يرى أن الأبستمولوجيا لا شأن لها البتة بالذات العارفة ، بل فقط بموضوع المعرفة ، وهذه الموضوعية المنفصلة تماماً عن الذوات تنسحب على العلم.

أى أن المعرفة التى يريدها (بوبر) هي معرفة بغير ذوات عارفة أصلا مادام مكانها وهو العالم 3 أى عالم المحتوى الموضوع للفكر ، عالم الكتب العلمية والفلسفية والسياسية والأدبية وأجهزة الكمبيوتر. هذه المعرفة على النحو التالي :

أ- أنها تبدأ بمشاكل علمية ، ونظرية أيضاً.

ب- أنها تتضمن البحث عن الحقيقة ، أى البحث عن نظريات تفسيرية صحيحة موضوعيا .

ج- أنها معرفة لا تبحث عن اليقين فالمعرفة البشرية كلها ليست معصومة من الخطأ- هي إذن محل شك ، لأنه لا توجد معرفة

.يقينية لأن"المعرفة اليقينية كلمة فارغة

د-المعرفة العلمية هى دائما افتراضية وحدسية ومنهجها هو المنهج النقدى

هـ- إن المعرفة العلمية تنشأ فقط من تخمينات أو فروض أو جزئيا من فروض تعرضت لاختبارات قاسية. وهى معرفة غير محددة المصدر لأن السؤال عن المصدر كما يراه بوبر يتعارض مع المنهج النقدى المعارض أو الرافض للاعتقاد الراسخ ولأي سلطة فيقول "لنقل بكل المصادر من عقلية وتجريبية ، على ألا يكون لأحد منها أسبقية أو سلطة على الآخر

أى أن بوبر يرفض الربط بين الصدق ومصدر المعرفة ، فالمعرفة عنده ليس لها مصادر نهائية وحتى إذا كان لها مصادر فلابد أن تكون هذه المصادر عرضة للفحص والنقد ، وهكذا لا يكون سؤالنا الأساسي عن

مصدر المعرفة بل يدور بالأحرى حول صدق ما تؤكده من قول بمعنى مطابقته للوقائع ويتأتى لنا ذلك بفحص واختبار القول ذاته ، إما بطريقة مباشرة ، أو بفحص واختبار ما يترتب عليه من نتائج

وهكذا تكون المعرفة عند بوبر هي بحث عن الصدق ، لكنه ليس الصدق التام أو المطلق ، إنما الصدق الذى يشير إلى انطباق جملة ما على واقع فعلى تتحدث عنه الجملة

ويدافع بوبر عن نظريته المعرفية فينفى أن تكون معرفة قبلية فطرية بالمعنى الكانطى اليقيني فيقول "إن المعرفة القبلية الفطرية كانت فى الأصل معرفة إدراك حسي وهى فطرية بالنسبة لنا لأنها انتقلت إلينا من أجدادنا"

ثم يقول فى موضع آخر "....مادامت معرفتنا الحسية معرفة فرضية ، فإنه من الممكن أيضا للمعرفة القبلية أن تكون معرفة فرضية أيضا" كما يرى أن تكيف الكائن الحي مع بيئته شكل من أشكال المعرفة القبلية "فالزهور على سبيل المثال لديها معرفة بتعاقب الليل والنهار ، من هنا نجد أنها تنغلق على نفسها وتنفتح ، إذن فهى تعرف شيئا عن الاطرادات العامة ، دون أن يعنى هذا أن لها عقلا ولكن بمعنى أنها تتكيف مع البيئة بطريقة معينة"

وأخيراً ينظر بوبر إلى المعرفة والعلم نظرة واحدة ، فالعلم ليس إلا مرحلة متقدمة من المعرفة بل وخرج من عباءتها عندما كانت غير علمية، والعلم أيضا يسير فى تطورات تشبه التطورات البيولوجية التى يمر بها الكائن العضوى ، فالمسار الذى تسلكه "الأميبا" لحل مشكلة حصولها على الغذاء هو نفس المسار الذى يسلكه أينشتين لحل مشكلة النسبية ، فأى سلوك ليس إلا محاولة لحل مشكلة معينة لذلك فلابد أن تكون المعرفة بدورها نشاطا لحل مشكلة " لابد أن يبدأ أى موقف بمشكلة محددة تأتى بعد ذلك محاولة حل اختبارى لهذه المشكلة ، ليتخذ النقد دورا أساسيا فى مناقشة هذا الحل المقترح فيستبعد الخطأ منه ، وبعد حذف الخطأ يبرز موقف جديد يحتوى على مشاكل إذ أن الموقف يبدأ بمشكلة وينتهى بمشكلة ثانية تبحث عن حل وهكذا يبدو تأثر بوبر الواضح بنظرية دارون فى التطور وهى تلك النظرية التى تقول "إن الأفراد التى تتكيف بصورة أفضل لديها فرصة أكثر للبقاء"

ويؤكد بوبر على أنه رغم حاجتنا الضرورية للإدراك الحسى ، إلا أن ذلك لا يعنى أن معرفتنا تبدأ بالإدراك الحسى ، لأن الحواس من وجهة نظره 32 التطورية هى "أدوات تم تدريبها على حل مشكلات بيولوجية معينة

إذن يريد بوبر أن يحذرنا من الاعتماد على الإدراك العام الذى غالبا ما يتأثر بالأمور الذاتية وبالأحكام المسبقة ، ولا يعنى ذلك استبعاده أو إلغاء دوره عند بناء المعرفة ، بل علينا أن نجعل أحكام الإدراك العام مجرد نقطة بدء أو مشكلة نبحث لها عن حلول ..

لقد أنكر بوبر اعتبار الحس المشترك أساس للمعرفة ، أو القول بأن المعرفة تبحث في العلاقة بين عقولنا الذاتية وموضوعات المعرفة التي كان راسل يسميها "بالاعتقاد أو الحكم "

كما أنكر بوبر وجود أى ارتباط بين العلم والمعتقدات لأن ذلك سيؤدى من وجهة نظره إلى الدخول فى متاهات ذاتية حول اعتقادات الذوات وأسسها وأصولها ، وهى بحوث كما يرى هى أقرب إلى علم النفس منه إلى المنطق ، وإذا كان بوبر ينكر قيام أى علاقة بين العلم والمعتقدات فإنه فى نفس الوقت لا ينكر وجود علاقة بين العلم والحس المشترك ولكن بشرط ألا نعتبر الحس المشترك مصدراً للمعرفة، إنما كل ما علينا هو الإطلاع على ما نعرفه من خلال الحس المشترك ثم نعرضه من خلال المناقشة النقدية ، أى أن المعرفة العلمية أعم بكثير من المعارف الحسية العادية لأنها لا تقتصر على ملاحظة الأشياء التى تهمنا ، فقط بل تعداها إلى الملاحظات الأكثر عمومية وأتساعا وتنظيما .